حافظ إبراهيم .. شاعر النيل

نشأ حافظ إبراهيم في بيئة شعبية يتيمًا فقيرًا، وذاق في طفولته وشبابه ما ذاق من بؤس وصعوبات وتشريد. كان أبوه إبراهيم فهمي أحد المهندسين الموظفين بالحكومة المصرية، وهو مصري صميم، ذو دخل محدود. وكانت أمه السيدة هانم أحمد البورصة لي من أسرة تركية تسكن المغربلين، وهو حي شعبي بالقاهرة. وتعرف بأسرة الصروان، إذ كان والده أمين الصرة في الحج، فلقب بالصروان أي (القيم على الصرة). ولقبت الأسرة به.

ومع أن الدم التركي كان يجري في عروق حافظ إبراهيم كالدم المصري ألا إنه لم يمدح الأتراك كما مدح مصر والعرب. وكان أبوه وقت ولادته مشرفًا على بناء قناطر ديروط، وقد أنتقل إليها هو وزوجته. وهناك سفينة راسية على شاطئ النيل في أقصى الصعيد ولد شاعر النيل، وتفتحت عيناه أول ما تفتحت على صفحاته الخمرية الجارية. وأستنشق النسمات الأولى من نسماته العاطرة التي تتهادى على ضفتيه، وتمر بين مروجه الخضراء، ورياضة المخضلة الحسناء.

طفولة بائسة

وشاء القدر أن يبدأ حافظ إبراهيم مواجهة الأحداث، ومقارعة الخطوب، وهو لم يجاوز العام الرابع من عمره، فقد توفي أبوه في ديروط، ولم

يخلف له مالًا ولا جاهًا، ولم يترك له إلا اليتم والعدم المريرين وهو في هذه السن الغضة، فأضطرت أمه إلى الإنتقال به إلى القاهرة، حيث إلتجأت إلى أخيها «مُحَمَّد نيازي» وعاشت هي وولدها اليتيم المسكين في كنفه. ولا شك في أن مؤونتهما كانت واجبا أثقله أداؤه، إذ كان هو الآخر موظفًا صغيرًا، يعمل مهندسًا للتنظيم.

وكان على خاله هذا أن يعلمه حين بلغ السن التي تؤهله لبدء الدراسة، فلم يسعه إلا أن ألحقه بمكتب لتعليم القراءة والكتابة وشيء من العربية والحساب كان في حي القلعة بالقاهرة حينذاك، ويعرف بإسم «المدرسة الخيرية».

ومن هذا المكتب، أو «الكتاب» الأولى المتواضع البسيط، أنتقل حافظ إلى «مدرسة القربية الابتدائية». وكانت في ذلك الحين تعلم تلاميذها ما يتعلمه تلاميذ «الكتاتيب» ولكن بطريقة أقرب إلى النظام الحديث في التعليم.

ثم أنتقل حافظ إلى مدرسة «المبتديان. كما ألتحق بعدها «بالمدرسة الخديوية، ولكنه لم يلبث في هذه المدرسة الأخيرة إلا فترة قصيرة، ثم تركها وغادر القاهرة كلها إلى مدينة طنطا، ليعيش هناك مع أسرة خاله الذي نقل إليها في ذلك الحين.

وفي خلال هذه السنين العشر أو نحوها، التي قضاها حافظ متنقلًا بين الكتاتيب والمدارس الإبتدائية في القاهرة، تأصلت الشعبية في نفسه،

وأمتلأ ذهنه وقلبه بمختلف الصور الصادقة الناطقة عن الحياة القائمة لطبقات الشعب الكادحة الفقيرة. ولا شك في أن تجاربه الخاصة في هذه السن المبكرة كان لها أكبر الأثر في حياته، وكانت هي المنبع الغزير لما ردده في شعره من شكوى وعتاب ورثاء لليتامى والمساكين.

ولعله كان يصف طفولته البائسة المشردة ويتمه الأليم في المحاورة التي جرت بينه وبين صديقه وزميله المرحوم خليل مطران شاعر القطرين في حفل أقامته جمعية رعاية الأطفال بالأوبرا سنة ١٩١٣، إذ قال فيها:

هـــــــــذا صـــبي هـــائم ... تحــت الظـــلام هيـــام حـــائر
أبلـــي الشـــقاء جديـــدة ... وتقلمـــــت منـــــه الأظـــــافر
فأنظـــــــر إلى أســـــــماله ... لم يبـــق منهـــا مـــا يظـــاهر
هـــو لا يريـــد فراقهـــــا ... خـــوف القـــوارس والهـــواجر
لكنهـــــا قـــــد فارقتـــــه ... فـــراق معـــــــذور وعـــاذر

ولعل تلك الصورة لنفسه في ذلك الحين كانت نصب عينيه حين نظم قصيدته التي أنشدها في حفلة الجمعية الخيرية سنة ١٩١٦، وفيها يقول على لسان يتيم بائس ممن كفلتهم هذه الجمعية:

قضـــيت عهـــد حـــداثتي ... مـــا بـــين ذل وإغـــتراب
لم يغـــن عـــني بـــين مشـــرقها ... ومغربهـــــا اضـــــــطراب
صـــفرت يـــدي فخـــوى لهـــا ... رأســـي وجـــوفي والوطـــاب

وأنا إبـــن عشـــر لـــيس في طـــوقي مكافحـــة الصـــعاب

بل أكبر الظن أن حياة حافظ التلميذ اليتيم الصغير، وما أشتملت عليه من آلام وآمال في البيت والمدرسة، كانت فيها مشابه من حياة الطفلة التي وصفها في إحدى قصائده قائلًا على لسانها:

أخشـــــى مـــــربيتي إذا طلـــــع النهـــــار وأفـــــزع
وأظـــل بـــين صـــواحبي لعقـــــــابها أتوقـــــــع
لا الـــدمع يشـــفع لي ولا طـــــول التضـــــرع ينفـــــع
وأخـــــاف والـــــدتي إذا جـــــن الظـــــلام وأجـــــزع
وأبيـــت أرتقـــب الجـــزا ء وأعـــــين لا تهجـــــع
مـــا ضـــربني لـــو كنـــت أســـــتمع الـــكلام وأخضـع
مـــا ضـــربني لـــو صـــنت أثـــــوابي فـــلا تتقطـــــع
وحفظـــــت أوراقـــــي بمحـــــفظتي فـــلا تتـــــوزع

ذلك لأن توقع العقاب في المدرسة يبدو طبيعيًا من تلميذ مثل حافظ، عرف بين أترابه «بالشقاوة والإنصراف إلى المطالعات الأدبية التي تشبع ميله الخاص، كما أن توقعه العقاب في البيت على تقطيع ثيابه وتوزيع أوراقه ليس بالشيء الغريب أو المستبعد في الوقت الذي كان يعيش فيه هو وأمه ضيفين على خاله الموظف الصغير!

ومما يؤيد هذا، أنه هو نفسه قد شعر بثقل مؤونته على خاله، بعد إنتقالهما إلى طنطا، وتركه الحياة الدراسية إلى غير عمل يتكسب منه،

مكتفيًا بالمطالعات الأدبية، والإجتماع بهواة الأدب من شبان المدينة مثل الأستاذ الشيخ عبد الوهاب النجار الذي كان طالبًا وقتئذ بالمعهد الأحمدي هناك، للمذاكرة في نوادر الأدب، والمطارحة للشعر. وقد سجل حافظ شعوره هذا في بيتين خاطب فيهما خاله فقال:

ثقلـــت عليـــك مـــؤونتي إني أراهـــــا واهيـــــه

فـــأفرح، فـــإني ذاهـــب متوجـــــه في داهيـــــه

كرامة نفسه

كان حافظ في السادسة عشرة من عمره حين أبت عليه نفسه أن يعيش عالة على خاله، و كان عليه أن يجد لنفسه عملًا يعيش منه بكده وجهده، ولما كان لم يحصل على شهادة دراسية تؤهله للإلتحاق بعمل حكومي، وكانت مطالعاته الكثيرة ومحفوظاته من جيد الشعر ومختاره، لا تغني غناء الشهادات في هذا الشأن، فقد أتجه إلى ميدان الأعمال الحرة، وألتحق بمكتب لأحد المحامين في طنطا هو الشيخ مُحَمَّد الشيمي، على أمل أن يصبح محاميًا ناجحًا مثله، ولا سيما أنه كان يحس في نفسه أنه على حظ عظيم من طلاقة اللسان، والخبرة بفنون الكلام. وكانت المحاماة في ذلك العهد مهنة مفتحة الأبواب لكل من أراد ممارستها. وقد لقي فيها حافظ أول الأمر حظًا مبشرًا بالنجاح، وترافع في قضايا كثيرة بالمحاكم الجزئية القريبة من عاصمة الغربية فظفر بالحكم لصالح موكليه، أو موكلي المحامي الذي عمل في مكتبه. غير أنه ما لبث قليلًا حتى أختلف معه، فترك مكتبه إلى مكتب محام آخر في طنطا هو المرحوم مُحَمَّد أبو شادي، بعد أن

ترك له بيتين ضمنهما «إستقالته المسببة» من العمل في مكتبه هما:

جراب حظي قد أفرغته طمعًا

بباب أستاذنا الشيمي ولا عجبا

فعاد لي وهو مملوء، فقلت له:

مما... فقال من الحسرات وأحربا

ولقد وجد حافظ في صاحبه الجديد أديبًا يقدره حق قدره، فيطارحه بالشعر، وينادره بالأدب، ولكن نفسه الشاعرية الملول سرعان ما سولت له مغادرة هذا المكتب أيضًا، وإن لم ينس ما لقيه عند صاحبه من مودة وإكرام، فقال في الإحتفال بذكرى وفاته سنة ١٩٢٥:

عجبت أن جعلوا يومًا لذكراكا

كأننا قد نسينا بوم منعاكا

إذا سلت يا أبا شادى مطوقة

ذكر الهديل فثق أنا سلوناكا

قد عشت فينا نميرا طاب مورده

أسمى سجايا الفتى أدنى سجاياكا

فما كأولاك في بر وفي كرم

أولى كريم، ولا عقبى كعقباكا

الضابط الشاعر

وأنتقل حافظ بعد ذلك إلى مكتب محام آخر هو المرحوم عبد الكريم فهيم، غير أنه سرعان ما ترك العمل في المحاماة كلها، ثم عاد للقاهرة حيث ألتحق بالمدرسة الحربية، وواصل الدراسة في هذه المرة إلى أن تخرج فيها برتبة الملازم سنة ١٨٩١ وهو يومئذ في حوالي العشرين من عمره.

عين حافظ بعد تخرجه في المدرسة الحربية ضابطًا بالجيش، فأمضى فيه نحو ثلاث سنوات، ثم نقل إلى وزارة الداخلية وعين ملاحظًا للبوليس في مركز بني سويف ثم في مركز الإبراهيمية. ولم تكن مدرسة البوليس قد أنشئت بعد فكان ضباط البوليس يؤخذون من بين المتخرجين في المدرسة الحربية. وأعيد بعد ذلك الى وزارة الحربية.

وإلى هنا، كان حافظ الضابط الشاعر، ما زال يداعبه الأمل في أن يبلغ ما بلغه الضابط الشاعر الذي أتخذه مثلًا وقدوة، وهو المرحوم محمود سامي البارودي. وكان حافظ على حق في هذا الأمل، فهو في ميدان القلم والشعر كان قد صار شيئًا مذكورًا في الأوساط الأدبية، وهو في ميدان السيف والحرب كان قد بلغ رتبة الملازم الأول!

على أن صرح آماله بدأ ينهار فجأة، إذ أحيل إلى الإستيداع منذ

إعادته إلى وزارة الحربية، فعاوده بؤسه القديم منذ ذلك الحين، لأن مرتبه في الإستيداع لم يكن يزيد على أربعة جنيهات في الشهر!

سفره إلى السودان

ولبث كذلك خمسة أشهر أو نحوها، ثم كللت مساعيه في سبيل الخروج من أزمته النفسية والمادية بالنجاح، فعين بإدارة التعيينات، وأضطر خلال عمله فيها إلى السفر إلى السودان في الحملة الأخيرة بقيادة لورد كتشنر. وهناك قضي في السودان الشرقي حوالي سنتين، عانى فيهما الأمرين. وكتب خلالهما إلى صديقه المرحوم مُحَمَّد بيرم يصف حاله ويشكو مآله، قال:

نزحت عن الديار أروم رزقي

وأضرب في المهامه والتخوم

وما غادرت في السودان قفرًا

ولم أصبغ بتربته أديمي

وها أنا بين أنياب المنايا

وتحت براثن الخطب الجسيم

كما كتب من هناك إلى بعض أصدقائه يقول:

من واجد منفر المنام

طريد دهر جائر الأحكام

مشتت الشمل على الدوام

ملازم للهم والسقام

يا ليت شعري بعد هذا العام

إليكمو ترمي بي المرامي

أم ينتويني رائد الحمام

فأنطوي في هذه الآكام

وتولي الضبع على عظامي

ولائما للوحش في الأظلام

وزاد في شقائه خلال عمله في السودان، أنه كان مغضوبًا عليه من كتشنر نفسه، ذلك الجبار العنيد كما وصفه هو في كتاب أرسله إلى الأستاذ الإمام قال فيه: «وقعدت همة النجمين، وقصرت يد الجديدين، عن إزالة ما في نفس ذلك الجبار العنيد، فقد نما ضب ضغنه علي، وبدت بوادر السوء منه إلي، فأصبحت كما سر العدو، وساء الحميم».

وفي الوقت نفسه، كان رئيس فرقته حاقدًا عليه، لا يفتأ يذكره بالسوء

في تقاريره الرسمية، وذلك لأن حافظًا لم يكن يطيق غطرسته، وكثيرًا ما نظم في ذمة أراجيز ينشدها زملاءه الضباط، وفي إحداها قال فيه:

تـــراه إذ يـــنفخ في المزمـــار تحســـبه في رتبـــة الســـردار
يجتنـــب العاقـــل والنبيهـــا ويعشـــق الجاهـــل والســـفيها

هذا إلى قسوة القيظ في السودان، وحرمان حافظ هناك من أصحاب سمره ومجالس أنسه في القاهرة، مما دعاه إلى أن يواصل الكتابة إلى الأستاذ الإمام وغيره ممن يؤمل في توسعهم لإعادته إلى العاصمة، فكتب إلى بعض أصدقائه يشكو تلك الحال:

رميت بها على هذا التباب

وما أوردتها غير السراب

وما حملتهـــا إلا شـــقاء

تقاضينى به يوم الحساب

وما أعذرت حتى كان نعلي

دما، ووسادتي وجه التراب

وحتى صيرتني الشمس عبدا

صبيغا بعدما دبغت أهابي

وحتى قلم الأملاق ظفري

وحتى حطم المقدار نابي

إحالة إلى الإستيداع

وأخيرًا عاد حافظ إلى القاهرة، ولكنه عاد محالًا مرة أخرى إلى الإستيداع بعد أن حوكم وسبعة عشر ضابطًا من زملائه بتهمة العصيان، وهكذا تبخرت آماله وتبددت في أن يكون رب السيف والقلم مثل محمود سامي البارودي، وتراءى لعينيه ما ينتظره من عيش ضنك بالجنيهات الشهرية الأربعة التي هي مرتب الإستيداع، فكتب بعد سنتين وأربعة أشهر إلى الجهات المختصة طالبًا إحالته إلى المعاش، ذاكرًا في طلبه هذا «أنه مكث بخدمة الجيش ١٢ سنة، ولم يحصل فيها على غير رتبة ملازم أول، ومضي عليه أربع سنوات وهو في الإستيداع، وأنه فقد الأقدمية، ويلتمس إحالته على المعاش ليتمكن من وجود شغل له يقوم بنفقته ونفقة عائلته الكبيرة التي لا يقوم مرتب الإستيداع بلوازمها». وقبل طلبه فأحيل إلى المعاش في أول نوفمبر سنة ١٩٠٣.

حيرته وفقره

لبث حافظ بعد عودته من السودان يواصل السعي في سبيل الحصول على عمل ملائم يعيش منه. ولكنه فشل في سعيه هذا أكثر من عشر سنين، لم يدع خلالها بابًا إلا طرقه، ولا وسيلة إلا أتخذها. وكان حاله فيها كحاله حين كان صبيًا يعاني اليتم والبؤس، وكحاله وهو يقاسي الوحشة

والإضطهاد وفراق الأخدان والإخلاء في السودان، وفيها يقول:

سعيت إلى أن كدت أنتعل الدما

وعدت وما أعقبت إلا التندما

لحا الله عهد القاسطين الذي به

تهدم من بنياننا ما تهدما

إذا شئت أن تلقي السعادة بينهم

فلا تك مصريا، ولا تك مسلما!

وكقوله عند تهنئته للمرحوم عبد الحليم عاصم أمير الحج سنة ١٨٩٥:

يا لقـــومي أنـــني رجـــل حـــرت في أمـــري وفي زمـــني

أجفـــاء أشـــتكي وشـــقا إن هـــــذا منتهـــى المحـــن

وقد صقلت هذه الأعوام نفس حافظ ومواهبه الشعرية، بما أتيح له فيها من تجارب ودراسات في صميم الحياة، وتوفر على صوغ الشعر وتجويده لإتخاذه وسيلة إلى بلوغ الغاية التي يريدها، وكانت غايته أول الأمر أن يحظى بمنصب في القصر، فأخذ يزجي إلى الخديو عباس الثاني مدحة بعد مدحة في مختلف المناسبات.

تشجيع الأستاذ الإمام

على أنه وقد يئس من نيل متمناه عند الخديو وشاعره، ظل يلقي عند الأستاذ الإمام مُحَمَّد عبده صدرًا رحبًا وعطفًا كريمًا وتشجيعًا عظيمًا. وقد سجل حافظ ما لهذا المصلح الكبير عليه من مآثر في كثير من القصائد والرسائل. كقوله من قصيدة طويلة:

لي كل حول لبيت الجاه منتجع

كما تشد لبيت الله أرحال

وزهرة غضة ألقي الإمام بها

ها على أختها في الروض أدلال

يا من تيمنت الفتيا بطلعته

أدرك فتاك فقد ضاقت به الحال

وبفضل تشجيع الأستاذ الإمام مُحَمَّد عبده أستطاع حافظ أن يزداد تألقًا ولمعانًا بين نجوم الشعر في ذلك الحين، كما أستطاع أن يتألق بين نجوم النثر بإخراجه كتاب البؤساء» للشاعر الفرنسي فيكتور هوجو في حلة عربية فاخرة كانت ولا تزال موضع الإعجاب لدى الأدباء والمتأدبين.

ولم يكن عجبًا أن يكون حافظ أشد أصحاب الأستاذ الإمام وتلاميذه حزنًا وفجيعة ولوعة عند موته في سنة ١٩٠٥ فقد ضاعت بفقده بقية ما

كان للشاعر العصامي من أمل في الحياة، كما عبر هو نفسه عن ذلك في رثائه للمرحوم قاسم أمين بعد ذلك بعامين فقال:

وأها على دار مررت بها

قفرا، وكانت ملتقى السبل

سائلتها عن قاسم، فأبت

رد الجواب فرحت في خبل

متعثرا، ينتابني وهن

مترنحا كالشارب الثمل

متذكرا يوم الإمام به

يوم أنتويت بذلك البطل

يوم أحتسبت، وكنت ذا أمل

تحت التراب بقيمة الأمل

وقد حرص حافظ على أن يسجل ذلك في رثائه للأستاذ الإمام في الحفلة الأولى التي أقيمت لذلك فقال:

فيا منزلا في «عين شمس» أظلني

وأرغم حسادي وغم عداتي

دعائمه التقوى، وأساسه الهدى

وفيه الأيادي موضع اللبنات

لقد كنت مقصود الجوانب آهلا

تطوف بك الآمال مبتهلات

مثابة أرزاق، ومهبط حكمة

ومطلع أنوار، وكنز عظات

حافظ في دار الكتب

ومهما يكن من أمر تلك السنين العجاف في حياة حافظ المادية، فلا شك في أنها كانت خيرًا وبركة على حياته الأدبية والإجتماعية، ففي خلالها أنشأ كثيرًا من غرر قصائده في السياسة والوطنية والأخلاق والعادات والتقاليد، وأخرج كتابه الثاني «ليالي سطيح». كما أشترك مع صديقه شاعر القطرين خليل مطران في ترجمة كتاب في «الإقتصاد». هذا إلى أن إتصالاته من طريق أدبه وشعره بكثيرين من الكبراء داخل الحكم وخارجه، إنتهت أخيرًا بأن عينه المرحوم أحمد حشمت ناظر المعارف رئيسًا للقسم الأدبي في دار الكتب في سنة ١٩١١ بمرتب شهري قدره ثلاثون جنيهًا، ثم ثبت في هذا المنصب بعد عام وأنعم عليه برتبة البكوية، وفي

ذلك قال من قصيدته في الحفل الذي أقيم لتكريمه في هذه السنة الأخيرة: وما كنت أحلم لولا الوزير بهذا الهناء، وهذا اللقب

على أياد له جمة ... وفضل قديم شريف السبب
فأنا أقال به عثرتي ... وأوري زنادي، وآنا وهب
تفيأت منه ظلال النعيم ... وأصبحت أعرف لبس القصب

حافظ الكريم

وكأنما شاء القدر إلا أن يبقى حافظ الشاعر العصامي طول حياته شاعرًا بما يشعر به البائسون والمعدمون، لكي يبقي لهم نعم النصير، وليختصهم من شعره الذائع بالشيء الكثير... ومن هنا عاش حافظ بعد ذلك ما عاش وهو ينفق باليمين ما يكتسبه باليسار، وقد يسخو بكل ما يملك من مال على صديق أو زميل بائس، وفي الوقت نفسه كانت عزة نفسه تأبى عليه أن يذل لغير الله.